الواقعية في قصص يوسف إدريس القصيرة

توصيف أحمد مير*

الواقعية أدب العلم والإنسانية معا وممارسة لخدمة الإنسان تصور من الحياة ما يستحق التسجيل والتصوير وتناقص المثالية التي تجرد الحياة من جميع نقائصها ومثالها محاولة تجميلها بعناصر الجمال والخيال والمثل العليا"[١].

بدأت الدعوة إلى الواقعية في الأدب القصصي في مصر مع العقد الثاني من هذا القرن (القرن العشرين) بظهور محمود تيمور وعيسى وشحاتة عبيد ومحمود طاهر لاشين ودعوتهم إلى مذهب الحقائق الذي يدعو إلى الخروج إلى حياة الناس العامة وتمثل آلامهم وآمالهم ومشاكلهم وقضايا المجتمع، أو بمعنى آخر ربط الأدب بالحياة برباط وثيق من أمشاج ووثائق تجعل منه صورة واقعية حية لا مخلوقا شائها غير مكتمل"[٢]. وقامت هذه الدعوة بتأثير من تطور الطبقة البرجوازية المصرية، ومع ذلك لعبت ثورة ١٩١٩م دورا هاما في نشر دعوة الواقعية في الأدب القصصي العربي وفي تطور المجتمع المصري.

وهكذا كانت البيئة الفكري والثقافي خلال هذه الثورة قد هيأت أذهان الأدباء وقلوبهم لتقبل هذه الدعوة الواقعية منهجا وأسلوبا. وبسبب ذلك شهد الأدب المصري القصصي في ذلك الوقت نتاجا أدبيا غزيرا يشير إلى الواقعية كما نجد تأثير هذه الدعوة في أعمال يحيى حقي ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم

---

* باحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

وغيرهم. وفي هذه البيئة تشير إلى الواقعية في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، ظهر الأديب المبدع يوسف إدريس حاملا لواء الواقعية يعلن بميلاده ككاتب واقعي جديد في الأدب العربي القصصي. وهكذا أخذ يوسف إدريس أن تلمع شخصيته من بين أدباء المدرسة الواقعية في الأدب العربي المعاصر.

دخل يوسف إدريس في رحلته الإبداعية مع القصة القصيرة في الخمسينيات مع إصدار مجموعته القصصية الأولى "أرخص ليالي" عام ١٩٥٤م. وهي المجموعة التي تشتمل على المضامين الإنسانية الواقعية توافر لها رهافة الحس وشاعرية الوصف والتناول. لقد نشر يوسف إدريس حوالي اثنتي عشرة مجموعة قصصية من عام ١٩٥٤م إلى عام ١٩٨٨م حين أصدر مجموعته الأخيرة بعنوان "العتب على النظر". وفي جميع هذه المجموعات نجد عالما كاملا من الحياة المصرية العامة تعكس هموم المجتمع وقضاياه ومشكلات الفلاحين واضطراب الفقراء وصراخ الأرامل وغيرها.

لقد شهد يوسف إدريس في حياته الأدبي التحولات المختلفة والمتنوعة إما السياسية والوطنية والاجتماعية في بلده مصر وشاهد ظهور الطبقة الشعبية وبروزها عنصرا فعالا مؤثرا في الحياة الاجتماعية والسياسية، وعكس جميع هذه التحولات في أعماله في قالب حقيقي تحت اللواء الواقعية.

والجدير بالذكر هنا أن يوسف إدريس قدم في قصصه القصيرة مفهوما واضحا للواقعية عنده منذ أول مجموعته القصصية "أرخص ليالي" وتابع تعميق هذا المفهوم الواضح خلال مجموعاته الأخرى نشرت بعد ذلك. وهكذا نجد آثار يوسف إدريس الأولى تدور كلها حول قضايا العمال والفلاحين

والمظلومين من الفقراء، وهي القضايا التي تفرض نفسها عليه. ولذلك نجد في مجموعته الأولى "أرخص ليالي" أنه يختار شخصياته من بين الطبقات الدنيا التي تكافح من أجل لقمة العيش وتتطلع إلى الحياة الكريمة بعين الحسرة والأسف. ففي قصة "نظرة" نقابل فتاة صغيرة ترتدى ثوبا قديما مهلهلا، واسعا يشبه قطعة القماش التي ينظف بها الفرن، تطل رجلاها من ذيله الممزق كمسمارين رفيعين، وهي تعيش تحت حمل ثقيل، وما ذلك الحمل إلا أنواع مختلفة من المأكولات التي كلفتها سيدتها إلى البيت. وهكذا هذه القصة على الرغم من بساطتها تترك أثرا كبيرا على القارئ كما توحى له بمدى حاجة تلك الفتاة إلى الغذاء وحاجة إلى الحرية واللعب مثل سائر الأطفال الذين شاهدتهم أثناء سيرها يلعبون بالكرة.

لقد جاء يوسف إدريس في قصصه بتجاربه الذاتية المتنوعة مرورا بالمشاهدات في مجتمعه وفي بيئته التي نشأ فيها كما يقول د. السعيد الورقي "قدم يوسف إدريس في مجموعاته القصصية تجارب عديدة متنوعة، وتلمس فيها أعماق البنية للمجتمع المصري في القرية والمدينة وذلك من خلال رؤية واقعية متمايزة وذات طابع خاص ربما كان أقرب تعريف لها أنها واقعية انسانية تعرفت على الصور المتعدة للواقعية من نقدية ورمزية وتحليلية وغيرها"[٣].

وهكذا مرت هذه الواقعية عند يوسف إدريس بمراحل متعددة كما بدأت الرؤية الواقعية مختلطة ببعض المشاعر والأفكار الرومانسية، وبعد ذلك كانت الرومانسية السمة التي سيطرت على قصصه في المرحلة الأولى مثل "أرخص ليالي" و"أليس كذلك" و"جمهورية فرحات" و"البطل"، وبعده عندما ازدادت تجرباته بالواقعية تحول منهجه إلى الواقعية النقدية حيث سعى إلى الاكتشاف

عن الجوانب السلبية في حركة الواقع الاجتماعي والتفت إلى إقامة مجتمع إنساني وإلى استقلال الفرد. "وقد قادته الرؤية النقدية إلى محاولة تعمق الداخل لدى الفرد استظهارا لفاعلياته وقدراته على العطاء، فتوصل إلى السر الكامن في لغة الداخل والأعماق في مرحلة انسانية قامت على تقديم رؤية مركبة للواقع تقوم على الاحساس المشترك بالمسؤولية وتحتفى بالتعاطف والمشاركة في علاقة الفرد بالفرد، وفي علاقة الفرد بالجماعة"[٤]. وبعد ذلك تحول يوسف إدريس إلى المرحلة الرمزية حيث انشغل بتقديم عالم الداخل. وهكذا مرت الواقعية في القصة القصيرة عنده بمراحل متعددة ومتطورة وكانت لكل مرحلة سمات معينة ومفهوم خاص وسنلقي ضوء سريعا على جميع هذه المراحل على هذا النحو:

المرحلة الواقعية الرومانسية: كانت مجموعة "أرخص ليالي" التي نشرها عام ١٩٥٤م هي المجموعة الأولى التي بدأ بها يوسف إدريس رؤيته الواقعية حيث حاول أن يقدم مذهبا جديدا في القصص ذات لون محلي مميز حيث يوجد الحياة والعادات والتقاليد من خلال الملاحظة الدقيقة وقدمها بطريقة توخى فيها الموضوعية قدر الإمكان. "ففلاحو قرية قصة "في الليل" نماذج للفلاحين المطحونين في القرية المصرية "قرية الأربعينيات" حياتهم كانت جدباء صعبة لا يستطيع الحب أن يجد له مكانا فيها ولا يستطيعون العيش إلا إذا كرهوا وحقدوا وتخاتفوا، كانوا ككل من في القرية يودون الحياة، ولا حياة هناك إلا بالصراع، ولا بقاء إلا للأقوى"[٥]. وهكذا يصف الكاتب في هذه القصة احساس الفلاحين بالتعب والشقاء في بداية القصة في موضوعية متأنية تتسم بدقة الملاحظة والتسجيل الحي لدقائق التفصيلات الخارجية.

وأما القصة "في الليل" لقد قدم فيها يوسف إدريس حياة الفلاح المصري الكادح من زاوية صغيرة تقوم على علاقة التضاد بين ما يعانونه وما يأملونه. والكاتب هنا يقدم الفلاحين من منظور انساني فيه تأمل رومانسية تشفق على البؤساء المطحونين كما يقول "إن حياتهم لا جديد فيها ولا طريف حتى الموت ما كان فيه جديد، وإنما كان عودة حزينة لحزن قديم. الناس تولد وتكبر ثم تموت، والبقرة تدور في الساقية مغماة لا تدري أين تسير، وعيون الساقية تغترف الماء من باطن الأرض وتمتلئ به، ثم تصبه العيون ليعود إلى الأرض وباطنها، لا جديد في حياتهم ولا طريف"[٦].

وهكذا نلاحظ هنا المماثلة الرمزية بين البقرة المربوطة في الساقية والتي تدور وتدور وهي مغماة عن حقيقة واقعها وبين حياة هؤلاء الفلاحين المساكين، وهي نظرة لا تنتمي إلى الواقعية بقدر انتهائها إلى الروح الرومانسية في النظر إلى الإنسان. أما الأمل فهو أمل البسطاء في لقاء جماعي يتسامرون فيه ويرددون أشياءهم التافهة فيتسلون على أنفسهم ويضحكون على ضعفهم"[٧]. وهكذا نجد في هذه القصة "في الليل" يقدم يوسف إدريس لوحة حية لحياة وعادات اجتماعية حرص على أن يوفر لها قدرا من الموضوعية على الرغم من وضوح وجهة نظر الكاتب وموقفه الذي بدا في تعاطفه الشديد مع عيناته الواقعية، وكذلك تداخلت الرؤية الواقعية متمزجة مع القضايا الرومانسية في نظرة الكاتب إلى الواقع وعلاقته به.

مرحلة الواقعية النقدية: بعد مرحلة الواقعية الرومانسية التفت يوسف إدريس إلى مرحلة الواقعية النقدية وربما كانت قصته "جمهورية فرحات" بداية هذا التحول عن الواقعية الرومانسية إلى الواقعية النقدية. وإلى جانب الحظ

الرومانسي في هذه القصة والذي تمثل في حلم فرحات بجنة اشتراكية صناعية يهنأ فيها الجميع بالسعادة ويحققون معجزة اختفاء الفوارق الطبقية كما يقول د. سيد حامد النساج "وقصته (جمهورية فرجات) تقف دليلا على أنه تجنب مزالق الواقعيين الانحيازيين. وهي تبحث في ذهن أحد ممثلي السلطة (الصول فرحات) في قسم من أقسام البوليس عن أحلامه وأمانيه بالنسبة لتغيير صور الواقع التي تمر أمامه كل يوم، وهي تجسد أغلب صور الصراع الاجتماعي والطبقي، وتفضح كل مخازي البنيان المادي والاقتصادي والاجتماعي، ثم تضع بموضوعية رؤية هذا الانسان للواقع الجديد الذي يجب أن يكون، فتأتى رؤيته شاملة واقعية تتناول نظام الحكم، والنظام الاقتصادي والتركيب الاجتماعي والدين والفن والأخلاق والفلسفة والتعليم. ولقد استند هذا المجتمع الجديد إلى أسس مغايرة تمام المغايرة للمجتمع القديم أو للمجتمع القائم. لأنه مجتمع اشتراكي لم يكن قائما في الواقع وإن كان ماثلا في ذهن "الصول فرحات" وفي أحلام الكاتب النقدى"[٨].

بدأت الرؤية الواقعية النقدية عند يوسف إدريس بداية تهدف إلى تعرية الواقع الاجتماعي، فقدمت القصة القصيرة عنده انعكاسا للمتغيرات الحضارية بجوانبها السلبية حيث ظهرت جوانب الانحرافات المختلفة التي تدين المجتمع وقوانينه اعتمادا على ملاحظات الكاتب الراوي أحيانا أو على تكوين الشخصيات ودلالة الحدث أحيانا أخرى"[٩].

وقدم الكاتب هذا الواقع من خلال شخصياته إلا نموذج التي يبالغ أحيانا في وصفها مبالغة تعكس وجوده وراءها كما نرى في قصته "طبلية من السماء" من مجموعة "حادثة شرف" تبدو أزمة الشيخ على الذي هو فقير معدم لا يجد

ما يأكله منذ أيام، ومع عفيف شديد المحافظة على كرامته يجوع ولا يصرح بجوعه، إلا أن الفقر الملح والجوع الشديد جعلاه يجأر بالشكوى.

وهكذا في هذه المرحلة سعى يوسف إدريس في واقعيته النقدية إلى تعرية البناء الاجتماعي بتحويل قضية الفرد إلى قضايا مجتمع ودراسة السلوك الانعكاسي في تصرفات أعضاء المجتمع وهم يواجهون هذه المشاكل"[١٠].

مرحلة الواقعية الإنسانية: تحول كتابة يوسف إدريس من مرحلته الواقعية الرومانسية إلى مرحلة الواقعية النقدية أولا وبعد ذلك تحول إلى مرحلة الواقعية الانسانية. وفي المرحلة النقدية، كان الكاتب مهتما بتقديم الشخصية المصرية الحقيقية والتي رغم ما قد يبدو عليها من قسوة وفظاظة الا أنها في النهاية تبطن الخير، بل إنها تجمع النقيضين معا، إنها الغلظة والحنان والقسوة والعطف اللين، والبخل الشحيح والكرم الذي يجود بكل ما يمتلك"[١١].

لم تتوقف اللمحات الانسانية عند الكاتب عند الحدود الرومانسية، أو النظرة المحلية التي أرادت أن تقدم واقع الابطال في صورتهم المحلية، بل امتدت في بعد انساني شمولي تتجاوز حدود الواقع المحلى المحدود لتصبح قضية أساسية من قضايا الانسان. وفي قصة "الورقة بعثرة" من مجموعة "لغة الآي آى" تناول الكاتب موقفا انسانيا عاما، هو العلاقة الزوجية بعد سنوات، وقد سادها الملل وسيطرت عليها المتاعب الخانقة في ظل زوجة لا تتوقف عن الشجار وصغار لا يتوقفون عن المطالب، حياة مكررة، كل يوم فيها يشبه سابقة ولاحقة فما أن فتح الباب حتى طالعه صراخ الاولاد، وحتى طالعته روحية نفسها،زوجته، واقفة في وسط الصالة، وشعرها واقف أيضا وهي تحاول أن تضرب ابنه الأصغر والولد يصرخ، وهي تصرخ والجدران تتهاوى تستغيث،

والأبواب تنخبط، ورائحة القلى والطبيخ تتصاعد كالغازات السامة والمدرة لليأس والكآبة، والأطفال يتعلقون برجليه ويتعثر في أرجلهم، وألف مشكلة وكارثة ومطالبة لابد تنتظره، إنها خانقة، تلك الحياة وتلك الزوجة"[١٢].

وتتميز أغلب قصص مجموعة "لغة الآى آى" بهذه النطرة الانسانية بشكل خاص. ويبدو أن الكاتب في هذه المرحلة كانت تسيطر عليه فلسفة أخلاقية تؤمن بأن الشر ليس له وجود حقيقي في هذا العالم، وإنما الشر موجود في الظاهر فقط. أما الخير فهو عماد الكون وهدف الخالق والخلقة. فإن بدا لعين الانسان شر أو نقص أو قصور فهو لأن عين الانسان لا تنفذ إلى باطن الحقيقة المتمثلة في كليات الوجود"[١٣]. ولعل أهم ما يميز المرحلة الانسانية في واقعية يوسف إدريس في القصة القصيرة هو انتقاله كلية من الاهتمام بالإنسان النموذج إلى تقديم الانسان العادي بتناقضاته وملامحه الواقعية.

الاحتفال الإنساني هو ما يبحث عنه يوسف إدريس في هذه المرحلة من تطور رؤيته الواقعية أن تتلاقى جماعة من البشر في علاقات يومية حميمة تعكس تعلقهم بالحياة وأملهم في غدهم، كما تعكس طموحهم وعذاباتهم، أو بمعنى آخر يتلاقون في احساس يومي متجدد بالحياة"[١٤].

مرحلة الواقعية الرمزية: مرحلة الواقعية التي نجد في قصص يوسف إدريس بعد مراحل الرومانسية والإنسانية هي مرحلة الواقعية الرمزية كما أشار إليه الدكتور السعيد الورقي قائلا "عاصرت المرحلة الرمزية في القصة القصيرة عند يوسف إدريس مرحلتيه السابقتين النقدية والإنسانية كما سبق، فقد كانت التجارب القليلة التي قدمها الكاتب هنا، والتي لم يفرد لها مجموعة

مستقلة، تجارب حاول فيها الكاتب أن يخرج على مألوف صياغته بالتعمق في استخدام الرمز لتقديم رؤيا داخلية تعكس احساس الكاتب بعبثية الموقف الاجتماعي والسياسي في واقعه من ناحية، كما توضح التضاد بين واقع الحياة المعاش وبين المثال الذى يحلم به من ناحية أخرى"[١٥].

لقد نجد التجارب الرمزية عند يوسف إدريس في الستينيات وهي الفترة التي اشتغل فيها جل الأدباء بمحاولات التجريب في القصة القصيرة ومن بينهم جمال الغيطاني ومحمد حافظ وإبراهيم أصلان وغيرهم ولكن لمع اسم يوسف إدريس بين جميع هؤلاء الأدباء حين حاول أن يثبت أنه يحمل أكثر تجريبا بين معاصرية في مجال الواقعية الرمزية. يقول د. أحمد هيكل عن يوسف إدريس "ليتك يا صديقي تترك الأحاجي والألغاز في كل أعمالك، مهما كان ذلك بسبب التقية أو البحث عن شكل جديد"[١٦].

والواقع أن اهتمام يوسف إدريس بالرمز بدأ مبكرا منذ إبداعاته الأولى في مرحلته الرومانسية الواقعية إذ حملت بعض قصصه آنذاك رموزا يمكن تفسيرها في ضوء رؤيته العامة ومنظورة الاجتماعي على نحو ما نرى في قصة "الطابور" من مجموعةٍ "جمهورية فرحات"، وقد أشار إلى هذه القصة وإلى رمزيتها السياسية الإجتماعية الناقد السوفيتي يورى ناجيين في مقال له عن يوسف إدريس وحاول تفسير مفرداتها من منظوره، فرأى في مالك الأرض الإنتهازية الرأسمالية وفي السوق تجمع الجماهير الشعبية وفي كسر هذه الجماهير للسور وإصرارهم على ذلك حتى بعد أن أصبح السوق ملكا للدولة رمزا لاصرار الجماهير على كسر الحواجز، كما فسر الجانب الشرقي للسور بأنه اليسار الذى فضل الكفاح لاستخلاص حقوقه وذلك في مقابل الذين يعيشون

في مواجهة السور الغربي فكأنهم أصحاب اليمين، وهم أهل المهادنة والرضا والرضوخ إذ يوافقون على الدخول من الباب الرئيسي في طواعية"[١٧] وهكذا نشاهد الرمز في أخرى أعمال يوسف إدريس مثل قصة "طبلية من السماء" من مجموعة حادثة شرف، وشخصية الشيخ شيخة من مجموعة "آخر الدنيا" وفي قصة "معاهدة سيناء" من مجموعة لغة الآي آي غيرها.

وهكذا "كان الرمز في كل هذه المحاولات رمزا مباشرا يمثل بعدا آخر يضاف إلى البعد الواقعي للقصة، فهذه القصص التي أشرنا إليها قصص واقعية تحمل رؤية واضحة وتصور شخصيات مألوفة في الواقع الاجتماعي على الرغم من شذوذ بعضها، سواء أكان هذا الشذوذ شذوذا في الهيئة الخلقية مثل الشيخ شيخة أو كان شذوذا في السلوك والتصرف كما رأينا في سلوك الشيخ علي في طبلية من السماء"[١٨].

وكذلك بعد فترة قصيرة دخل استخدام الرمز في أعمال يوسف إدريس القصصي في مرحلة جديدة، وفي هذه الفترة كتب عدة قصص قصيرة مثل "لأن القيامة لا تقوم" و"النداهة" و"العملية الكبرى "و"مسحوق الهمس" و"دستور ياسيدة" و"بيت من لحم" وغيرها.

وهكذا نستطيع القول إن مفهوم الواقعية عند يوسف إدريس كان يحمل معنا كبيرا واسعا يشتمل على المراحل المتعددة ابتداء من مرحلة الواقعية الرومانسية ومر بمرحلة الواقعية النقدية ومرحلة الواقعية الإنسانية وإختتم بمرحلة الواقعية الرمزية.

الحواشي والمراجع

١. الدكتور صلاح الدين تاك: نجيب محفوظ والرواية الواقعية، مؤسسة براون بوك

للطباعة والنشر الخاصة المحدودة، الطبعة الأولى، ص ١١.

٢. الدكتور السعيد الورقي: مفهوم الواقعية في القصة القصيرة عند يوسف إدريس، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص ١٣.

٣. المرجع السابق : ص ١٨.

٤. المرجع السابق : ص ١٨.

٥. يوسف إدريس : مجموعة قصصية أرخص ليالى، ص ١٥٩.

٦. المرجع السابق : ص ١٦٢.

٧. الدكتور السعيد الورقي: ص ٢٥.

٨. سيد حامد النساج: اتجاهات القصة المصرية القصيرة، ص ٢٨٨.

٩. الدكتور السعيد الورقي: ص ٥٠\٥١.

١٠. المرجع السابق : ص ٥٦.

١١. انظر د. ناجى نجيب، الحلم والحياة في صحبة يوسف إدريس، ص ٤٩.

١٢. يوسف إدرريس: قصة "الورقة بعثرة" من مجموعة لغة الآى آى، ص ٢٣٤.

١٣. انطر مقال د.لويس عوض عن يوسف إدريس في كتاب "يوسف إدريس بقلم هؤلاء" ص ٥٥.

١٤. الدكتور السعيد الورقي: ص ١٠٨.

١٥. المرجع السابق : ص ١١٨.

١٦. د.أحمد هيكل: النسيج القصصى عند يوسف إدريس، ص ١١٣.

١٧. مجلة الكاتب، العدد ٨٤، فبراير ١٩٦٥م، ص ١٣٥.

١٨. الدكتور السعيد الورقي: ص ١٢٢.

* * *